ظاهــرة الغموض في الشعــر العربي المعاصـر

الأستاذة : أمـــال دهنــون
كلية الآداب و اللغات
جامعة محمد خيضر-بسكرة ، الجزائر

ملخـــص:

يتناول هذا المقال ظاهرة الغموض في الشعر العربي المعاصر باعتبارها احد الخصائص المميزة للتجربة الشعرية منذ القديم، والغموض هو أهم ما يميز القصيدة المعاصرة التي تعبر عن الإنسان المعاصر بكل ما يعيشه من أزمات وتناقضات انعكست بالضرورة على تجربته الشعرية.
فالقصيدة المعاصرة هي القصيدة الهاربة المتمنعة، والتي تعزي القارئ للتفاعل معها وخوض مغامرة الكشف، لكن الغموض لا ينبغي أن يصل إلى حد التعمية، لذا سأدرس في هذا المقال ماهية الغموض ودوافعه ومواقف النقاد منه، فهل الغموض هو معيار لشعرية القصيدة؟

Résumé :

Cet article présente le phénomène d'ambigüité, qui reflète les crises et les contraintes de l'être humain, en tant que caractéristique de la poésie contemporaine arabe. De ce fait l'interaction s'impose pour toute découverte. Malheureusement, elle se heurte avec l'ambigüité. Est-il juste alors que l'ambigüité présente un critère formel de la poétique?

يعتبر الغموض من أهم ملامح القصيدة العربية المعاصرة، هذه القصيدة التي انفصلت عن التجربة الشعرية القديمة وراحت تبحث عن شكل معاصر لتعبر عن الإنسان المعاصر.

فما هو الغموض؟ ولماذا يلجأ إليه الشاعر؟

يربط كثير من النقاد بين الغموض والغرابة، فالقصيدة الهاربة، التي ترفض الكشف عن أسرارها ويكون المعنى فيها متمنعا، متخفيا توصف بالغرابة، والغرابة يسببها التنافر الذي أرجعه أدونيس إلى:« فقدان الأفكار المشتركة بين الشاعر والقارئ، وفقدان اللغة المشتركة، والثقافة الشعرية المشتركة » 1.

غير أن الحديث عن ظاهرة الغموض في الشعر المعاصر لا يمنعنا من الإشارة إلى أن القدماء قد تنبهوا إلى ظاهرة الغموض في الشعر العربي القديم، وحاولوا التفريق بين الغموض اللطيف المطلوب في الشعر عامة وبين التعمية التي يصبح الشعر معها ضربا من الإلغاز. وقد أكد عبد العزيز المقالح أن النقد العربي القديم « استطاع أن يفرق بوضوح تام بين الغموض والإبهام، بين القصيدة الصادرة عن الانفعال المعقد المرهف والقصيدة الصادرة عن العجز في الإيصال، والقائمة على العبث بالألفاظ »2. غير أن هناك عددا من النقاد القدماء أشادوا بالغموض واعتبروه مطلبا ضروريا لجودة الشعر، لما يخلقه من تأثير عميق في نفس المتلقي. فهدا الجاحظ يقول إن « الشيء من غير معدنه أغرب، وكل ما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكل ما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب وكلما كان أعجب كان أبدع »3.

ونجد أيضا ابن طباطبا يشير إلى الغموض في الشعر واعتبره من أهم ملامح الجودة فيه، وقال بأنه يأتي في « تعريض خفي يكون بخفائه أبلغ في معناه من التصريح الظاهر »4، فابن طباطبا هنا يعلن بأن التلميح أبلغ من التصريح، فهذا التستر والتخفي هو ما يدفع بالقارئ إلى التشوق للكشف عن المعنى الهارب من القصيدة، ويستعد لرحلة الكشف عن المجهول.

ورغم إشادة بعض النقاد القدامى والمحدثين بظاهرة الغموض في الشعر إلا أن ذلك لا ينبغي أن يتخذ الشعراء من ذلك سبيلا لتعمية المعنى إلى حد قد يصل إلى الإلغاز لأن « الكتابة الشعرية تحولت عند بعض الشعراء إلى نوع من الكتابة الهيروغليفية التي لا يفهمها أحد بل يكاد لا يفهمها صاحب الكتابة نفسه »5. فقد يعمد بعض الشعراء إلى إحاطة أشعارهم بهالة من الإبهام والغموض واستعمال ألفاظ غير مألوفة، فيقع القارئ في حيرة من أمره ويقف عاجزا عن حل شفرات ذلك النص، ولن يتأتى له ذلك إلا بالرجوع إلى القواميس. فيرى البعض أن أزمة التواصل بين الشاعر والقارئ ترجع إلى إساءة بعض الشعراء في استخدام الألفاظ - عن قصد أو عن غير قصد- فيصبح الكلام غامضا، هذا لا يعني أننا نطلب من الشاعر أن يتكلم بكلام الإنسان العادي، وأن يفكر تفكيره « فمن حق الشاعر أن يخلق فوق المعتاد والمبتذل والمستهلك لأن طبيعته أنه رؤيوي، والرؤيا حالة مرتبطة بالحلم لكن لا الإسراف في عقد صلات وعلاقات لا معقولة بين الألفاظ نفتقد فيها الدلالة، وهو ما يجعل لغة الشاعر عاجزة عن التوصيل والإيصال »6.

لعل كل هذا الكلام يدفعنا للتساؤل عن الأسباب التي تجعل الشاعر يلجأ للغموض؟

يذهب كثير من النقاد والشعراء إلى أن ما يطرأ على الشعر المعاصر من تغيرات ما هو إلا انعكاس لتغير المجتمع وظروف العصر الذي نعيشه، يقول أدونيس إن الشعر « صورة عن حياتنا المعاصرة في عبثها وخللها إنه صورة عن التشققات في الكينونة المعاصرة »7.

فالشعر المعاصر يتخطى الحدود ويتجاوز القيود المفروضة عليه، كما أنه متجاوز وثوري، فالشاعر يحاول أن يعالج قضايا عصره بتعقيداتها لذا تبدو القصيدة غامضة فهي « تعالج القضايا في ضوء تعقيداتها الحقيقية ويتلاقي الأضداد، تكتسب القصيدة التوتر و الزخم وترتفع عن مساق الكلام العادي »8.

ويرى محمد عبد الواحد حجازي أن الإنسان معرض لضغوطات عديدة ، فهو يعيش في عالم مضطرب، ممزق، تسوده حالة اللأمن فهو « يحاول أن يشق طريقه وسط غيوم كابية من الغموض، فإذا انعكست مشاعره على عمله الفني، فلا تثريب عليه ولا لوم »9.

إن ما قد يجعل القصيدة تبدو غامضة وصعبة هو الزاوية التي ينظر منها إليها، كما أن ظاهرة الغموض هي نتيجة حتمية لفقدان اللغة المشتركة بين الشاعر والقارئ. يقول أدونيس « إن رفض الرؤى الشعرية القديمة للعالم، ورفض الظواهر الثابتة التي تظل هي هي، ورفض شرحها، إن هذا كله ولد عند الشاعر الحديث واقعا سديميا محطما، غامض المعنى من جهة،وولد من جهة أخرى ذاتية تحيد عن العالم وإن لم تحاول الانفصال عنه »10. وهذا ما يولد التنافر بين الشاعر و العالم من جهة وبين الشاعر والقارئ من جهة أخرى، وهو ما يؤدي إلى الغرابة والغموض.

فالقصيدة المعاصرة ابتعدت عن النموذجية في الشعر وراحت تبحث عن شكل يناسبها ضمن التجربة الجديدة و بالتالي فإن « الأنساق النحوية واللغوية والبلاغية والإيقاعية بالضرورة تتطور في هذا الاتجاه وليس من المعقول أن يتغير الإنسان وتتغير معاناته وتجربته وأن تبقى الأنساق القديمة هي المسيطرة »11؛فالبحث عن الجديد والابتعاد عن النموذج القديم هو ما قد يولد القطيعة بين القارئ والشاعر. ففي حين يرى الشاعر في نفسه قمة الإبداع يرى فيه القارئ قمة الإلغاز والغموض. هذا الغموض هو سر القصيدة المعاصرة عند البعض لأن « التنافر الدفين في كل قصيدة هو شرط من شروط طبيعتها وهو ليس تمزقا أو جرحا، القصيدة وحدة لا يمكنها أن تتكون إلا في قلب الأضداد »12. وهنا يبرز دور القارئ في الكشف عن الغموض، فالقصيدة المعاصرة هي عمل إبداعي غير مكتمل وهي بحاجة إلى قارئ جديد ليكملها 13. لأن « غموض العمل الفني قد لا يرجع إليه وحده،فربما كان مرجعه إلى الشخص المقدر للقيمة الجمالية أو المتذوق لها »14.

على القارئ أثناء عملية القراءة أن ينفعل مع الشاعر لأن القصيدة ما هي إلا شحنة عاطفية لا تخلو من الروعة، غلفها الشاعر بهذا الغموض ليس عجزا في التوصيل و إنما ليمنح القارئ فرصة للتفاعل مع النص الأدبي، لذا نجد أدونيس يلقي باللوم على القارئ في عدم فهم القصيدة فيقول « كل خلاق غامض بالنسبة إلى معظم معاصريه (...) إن تهمة الغموض

دعوى باطلة ؛ قناع يخفي به القارئ ضعف ثقافته وقصورها، وإصراره على أن يفهم ما تغير بذهنيته »15.

فعندما يقول شوقي أبي شقرا: **أصغي إلى سيزيف »16.**

فإننا قد نشعر بالغموض لأن سيزيف غير موجود في تراثنا العربي وفي الوقت نفسه فإن الشاعر غير مطالب بتقديم شروح لقصائده ، فيدخل عندئذ القارئ في عملية تفاعل مع النص كمحاولة منه لإدراك المعني الهارب ، ومن ثم جاءت فكرة تعدد القراءات للنص الواحد ، فالنص الشعري الجيد هو ذلك النص المراوغ المتمنع الذي لا يبوح بأسراره.

وقد اكتنف شعر أحمد مطر هذا اللون الفني من الغموض بحيث لا يمكننا أن ندرك المعنى الحقيقي إلا بعد تمعن وإعمال للفكر من أجل بلوغ المعنى، وقد يوظف رموزا من الطبيعة أو يوظف الحيوانات ويجعل لها حوارا ينقل من خلاله الوضع الاجتماعي أو السياسي ،فنجده يعبر في "ثورة طيف" فيقول:

<<وضعوني في إناء
ثم قالوا لي تأقلم
وأنا لست بماء
أنا من طين السماء
وإذا ضاق إينائي بنومي
.....يتحطم>>17

فالقارئ لهذه المقطع يتبادر في ذهنه العديد من التساؤلات وذلك لغموض الصورة، فالقارئ يجهل حقيقة الطين وما علاقته بالثورة ولا يعي ضرورة توظيف الإناء وما الغاية من إيراد الماء وما علاقته؟ فالتركيب يبدو غير منسق ولا متكامل لأن مطر لا يريد التصريح المباشر، فبدل توظيف الإنسان المتحرر آثر مطر توظيف مصطلح "الطين " ليدل عليه، فالطين رفض أن ينحصر في إناء محدد الحيز والزوايا ومقيد فذلك هو المتحرر الذي يرفض الذل والقيود والمهانة فهو يناشد الحرية ولا يرضى بديلا عنها ،فالغرابة والحذف وتكثيف الصورة هي من أهم أسباب الغموض في المقطع السابق .

وهناك من يرجع الغموض إلى اللغة الشعرية، فلغة الشعر المعاصر تختلف كثيرا عن اللغة التقليدية، يقول نزار قباني « الشعر عصيان لغوي خطير..على كل ما هو مألوف.. ومعروف..ومكرس.. » 18، فلغة الشعر المعاصر لغة متجاوزة وثائرة على القوانين اللغوية، لكن هذا لا يعني أن كل انتهاك وعصيان على اللغة هو إبداع وإنما المطلوب هو لغة شعرية جديدة تحمل معها آفاقا للخيال و التذوق الفني لأنه « لا يكفي انتهاك القانون اللغوي لكي تكتب قصيدة، إن الأسلوب انتهاك ولكن ليس كل انتهاك أسلوبا »19.

ولعل أهم ما يميز الشعر المعاصر هو اعتماده على المجاز بشكل كبير، واستخدام المجاز في اللغة يفتح الباب أمام التأويل وتعدد القراءات، حيث تستخدم اللفظة في غير ما وضعت له. وبالتالي ينقلها من المدلول الواحد إلى عدد لانهائي من المدلولات وهو ما يجعل الشعر يبدو غامضا ومبهما، لأنه « يفجر الجوانب الأكثر غنى وعمقا في كياننا، الجوانب التي جهلناها أو تجاهلناها وكبتناها لأسباب كثيرة اجتماعية وثقافية وسياسية، وفي هذا المستوى يكون الشعر خلقا يكشف عن الأجزاء الخفية »20.

فتلك الأجزاء الخفية التي تحدث عنها أدونيس والتي تعودنا على كبتها بحاجة إلى قارئ ماهر للكشف عنها ونظرا لاختلاف المستوى الثقافي وتباينه، قد تتهم القصيدة بالغموض ويتهم الشاعر بالعجز عن الإيصال. فالدخول إلى عالم القصيدة لم يعد ميسورا لأن اللغة المستعملة غير مألوفة لأنه « ما دامت الرؤيا مغايرة كل المغايرة لما هو مألوف، وكانت اللغة المستخدمة خاضعة لطبيعة هذه الرؤيا، فإنه من الطبيعي أن يخلق القصيدة إطار من العتمة يجعل الولوج إلى عالمها شاقا »21.

مثل قول أدونيس:

➢أيها البحر يا صديق الجرح، أيها الجرح يا صديق الملح
أيها البحر الأبيض، أيها الفرات يا أياما بلا رقم
أيها العاصي يا سريرا بلا طفل، وأنت بردي ... لقد شربتك جميعا وما ارتويت➢22.

إن البحر في هذا المقطع لا يصبح مجرد منظر طبيعي، وإنما يتجاوز ذلك ليعدو رمزا خاصا بالشاعر، فيشحن المفردات بمعاني جديدة فقد يكون البحر مغامرة جديدة أو نوعا من الفرار نحو الموت أو رمزا للتطهير، وهذا ما يحدث نوعا من التفجيرات النفسية التي تتعدد بتعدد القراء وهو ما يجعل النص الشعري يسبح في فضاء من القراءات المتعددة، فالغموض هو ما يثير خيال القارئ، فيمضي في تتبع إشارات النص وبالتالي تكون القصيدة دائمة التجدد مع كل قراءة.

ومن أمثلة الرمز في تجربة "عثمان لوصيف" قوله في قصيدته "صراع مع الشيطان":

" طرزه قابيـل بالمعاصي
رحت أشق البحر عن شواطئ النهاية
سفينتي قصيدة ورايتي حكايـة ".23

في هذه الأسطر وظف الشاعر رمزًا تاريخيًا تمثل في "قابيل" وقصة سيدنا "نوح" –عليه السلام- فاتخذ من عبارة "سفينتي قصيدة" رمزا للخلاص .

وكما جاء أيضا في قصيدته "طولقة":

"النخيل هنا كالعرائس في عيدها الذهبي
والعراجين مثل الثريات أو كالحلي ".24

هنا نجد أن الشاعر اتخذ من لفظة "النخل" رمزا دالا على الصلابة والقوة والصمود وهو رمز خاص بمنطقة طولقة، حيث يقام لها في كل سنة عيد، كما تحوي هذه اللفظة مدلولات جمة منها:رمز المرأة، أو رمز السلام وأيضا رمز الشموخ .

وبعد كل ما قيل عن الغموض، فلا بد من التأكيد على ظاهرة الغموض من أبرز مظاهر الشعر المعاصر، لكن هذا الغموض لا ينبغي له أن يطمس معاني القصيدة. ويصل بها إلى حد الاستغلاق والتعمية، فهناك من يفرط في التعمية لأسباب عديدة وهو ما جعل نزار قباني يتساءل « هل التعميم هو الشرط الأساسي لتأكيد ثقافة الشاعر وغنى عوالمه الجوانية ؟

وبكلمة أخرى: هل غموض الرؤية وغموض الوسيلة، وغموض طريقة العرض هي معيار أهمية الشعر وأهمية الشاعر »25. بالتأكيد لا فالشاعر الذي يتوخى الغموض من أجل الغموض ليس بشاعر، فالقصيدة حينئذ تصبح عاجزة عن الإيحاء والإشارة. وهما من أهم خصائص الشعرية

إن إنكار أغلب النقاد للغموض المفتعل26، لا يعني ذلك دعوة للوضوح الصارخ لأنه يفقد الشعر متعته ويحرم القارئ من لذة الكشف عن المعنى، فالقصيدة الواضحة المألوفة أبعد ما تكون عن الشعر لأن « الجمالية الشعرية تكمن بالأحرى في النص الغامض المتشابه، أي الذي يحتمل تأويلات مختلفة ومعاني متعددة »27.

الهوامـــش و المراجـــع

1- عبد العزيز المقالح : أزمة القصيدة العربية - مشروع تساؤل، دار الآداب، بيروت، ط1، 1985،ص:33.
2- الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ط1، 1998، م1، ص: 89.
3- ابن طباطبا: عيار الشعر، تحقيق محمد علي سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1984،3،ص:59.
4- عبد العزيز المقالح : أزمة القصيدة العربية،ص:23.
5- ينظر:محمد عبد العظيم،في ماهية النص الشعري- إطلالة أسلوبية من نافذة التراث النقدي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت، ط1، 1994، ص:125.
6- صالح بلعيد: محاضرات في قضايا اللغة العربية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، د.ت، ص:118.
7- أدونيس: محاولة في تعريف الشعر الحديث، مجلة (شعر)، دار مجلة شعر، بيروت، س3، ع11، 1959، ص:87.
8- يوسف الخال: مفهوم القصيدة، مجلة (شعر)، دار مجلة شعر، بيروت، س7، ع27، ص:84.
9- محمد عبد الواحد حجازي: ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، دار الوفاء، لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2001، ص:59
10- أدونيس: محاولة في تعريف الشعر الحديث، ص:86.
11- قضايا وإشكاليات في الشعر العربي الحديث،النادي الأدبي الثقافي، جدة،المملكة العربية السعودية ، ط1،2001، ص:37.
12- اكثافوباث: مجلة (شعر)، دار مجلة شعر، بيروت، س7، ع28، ص:85.
13-ينظر: م.س، ص:87.

14- محمد عبد الواحد حجازي: ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، ص:46.
15- أدونيس: زمن الشعر،دار العودة ، بيروت، ط2، 1978، ص:280.
16- شوقي أبو شقرا: خطوات الملك، مجلة (شعر)، دار مجلة شعر، بيروت، س4، ع16، 1960، ص:30.
17- أحمد مطر.الأعمال الكاملة-لافتات- إعداد وتقديم مؤمن المحمدي، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، د ط،د ت،138.
18- نزار قباني: ما هو الشعر؟منشورات نزار قباني، بيروت لبنان، ط3، 2000، ص:43.
19- جون كوهين: النظرية الشعرية ،ترجمة أحمد درويش، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، ط4، 2000، ص:225.
20- أدونيس: سياسة الشعر- دراسات في الشعرية العربية المعاصرة ، دار الآداب، بيروت، ط1 ،1985، ص:.27
21- عزالدين إسماعيل: مفهوم الشعر في كتابات الشعراء المعاصرين، مجلة فصول،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، م1،ع4، 1981، ص: 81.
22- أدونيس: وحدة اليأس، مجلة (شعر)، دار مجلة شعر، بيروت، س2، ع(7،8)، 1958، ص:20.
23- عثمان لوصيف:الإرهاصات، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر، د ط ، 1997،ص:18
24- المرجع نفسه، ص:95
25- نزار قباني: قصتي مع الشعر، منشورات نزار قباني، بيروت لبنان، د. ط، د.ت، ص:53.
26- ينظر:عزالدين إسماعيل، مفهوم الشعر في كتابات الشعراء المعاصرين، ص:81.
27- أدونيس:الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط2، 1989، ص:54